عائشة عصمت تيمور

(١٣) نثرها

(ب) « مرآة التأمل في الامور »

لقد شاع ان « باحثة البادية » أوّل مصرية عالجت الموضوعات الاجتماعية . واني لأشترك بأن التيمورية كانت اوّل من فعل في مقالات مختلفة نُشرت في صحف زمانها ، وفي « مرآة التأمل في الامور » وهي رسالة وجيزة في ١٦ صفحة من القطع الكبير . ليس لهذه الرسالة من تاريخ يوقّتها . إلاّ ان منشئها ختمتها (على طريقة ذلك العصر الكتابي) بامتداح سمو الخديو السابق عباس حلمي باشا . فهي نُشرت والحالة هذه بعد توليته ، اي بعد ١٨٩٢ ، وفي السنوات العشر الاخيرة من حياة التيمورية

لغة هذه الرسالة ككل ما نثرت عائشة ، هي لغة المقامات ذات السجع والتطويل وهي تستهلها بالشكوى وتفكّر « لعلي ارى لسماء الصفو هلالاً ولعقد الازمة انحلالاً . . »

ويظهر انها عثرت على « انحلال لعقد الازمة » أو ما يشبهه ، لأنها « فاداني زعيم الجسارة هلمّ إلى مقصورة السلامة ، ولا تحذري الانتقاد والملامة ، وعليك بإيضاح الدعوى . . . »

وهنا قامت و«زعيم الجسارة» المشار اليه ، ولعلّه صديق خيالي — يخاطب حافل بالتبجيل المسجّع شغل صفحتين اثنتين ، فوصلنا اخيراً في اوّل الصفحة الرابعة إلى « ايضاح الدعوى » . وما هي الاّ انقلاب الادوار بين الرجال والنساء ، وتسرّب النساد إلى داخل الاسرة . ومنشأ ذلك في تقديرها ان جماعةً من الشبّان « غرّهم الله بالغرور حتى ان كلّ إنسان همّ بالاقتران من وضيع ورفيع وخامل ونبيه كان كلّ بحثه عن الحلي والحلل والضياع والعقار ، لا عن النسب والتديّن والعفّة والوقار » . ذلك ليتمتع بما تتملكه ربّات الجمال « ويريح افكاره من الاتعاب ويستغني عن الجهد في الاكتساب ، ويسلّم الزمام للهوى » مكتفياً « بتلك الثروة المستعارة وما يدري بأنه واقع في حبائل الجسارة . فتحتاط به اقرانه » « ويقوم جيش المداهنين بين يديه . . . »

ويظل الزوج بين طي وتبذير حتى ينفد من يده الدينار والدرهم . وإذ يعود الى البيت تقابله الزوجة بالنفور وينتقل النفوذ والسيطرة اليها لان الزوج عاجز الاّ عن

القصف والاسراف . « وحق الزوجية لا يتم الا اذا كان كل واحد منهما يرعى الآخر في لهُ وعليهِ ، فعلى الزوج ان يقوم بكل حقوقها ومصالحها ، كما يجب عليها طاعتهُ والانقياد لامرهِ » . فاذا انقلب الرأس عقباً فكيف تستقيم الامور وكيف « لا تلقي المرأة وشاح الحذر وترمي برقع الحياء ؟ »

أتكون الزوجة صابرة كتوماً دفعاً للشماتة وحذراً من ذيوع الفضيحة « فيوقت هذا الويل يحدث قلبها الحزين والوهان » ؟ الاّ انّ الكتمان لا يداوي علّة والتجلّد لا ينفث علّة ، بل تجدب في نفسها مادّةُ الحياة و « بدّلت القصور بالقبور » ! وإذن فالبشرى للزوج الذي لا يرثي ليتم الاطفال « بل يأخذ من الميراث ما لق وابقى ويجعلهُ صداقاً لمن يلقيها في أكنّهِ الشقا »

أم تكون المرأة سليطة اللسان وتضيقُ حيلتها فتعمدُ الى اللوم والمشاجرة ؟ إذن تبدأ حياة هي الجحيم ، إذ لا مقدرة للرجل على زجرها وإسكاتها ، فيهجر بيتهُ إلى الحوانيت والخانات « واذا اتى المنزل نام في الخال خوفاً من المرافعة في القيل والقال »

فكيف تحت النساء على ضياع شبابهنّ ونضارتهنّ واموالهنّ وآمالهنّ في الهناء والسعادة ؟ ان الحزن والاسى ليلهب قلوبهنّ ! فتمضي الواحدة منهنّ الى الجارات وتستجير من عذابها وكربها . فاذا هي وقعت على امرأةٍ فاضلةٍ هوّنت عليها الامر صبّت لحين استئناف الازمة الجديدة . اما ان هي ساقها سوء الطالع إلى تلك الدور التي تبدّل منها الصون والحصانة باسم الحرية العصرية ، فهناك تغويها من سلت اخلاقها فتستسلم المرأة وتخرج عن جادّة الحشمة . فيغار الزوج ويقوم بالتهديد والوعيد ، ولكن كيف تبأ بهِ وبكرامتهِ وهو لم يعرف لنفسهِ واجباتٍ ولم يقف في شرودهِ عند حدّ ؟

هذا منشأ الشقاء على ما بدا للتيمورية . لذلك ناشدت الرجال في آخر الرسالة ان يسمعوا لها ، ورجتهم « ان لا تنبذوا خطاب هذه الضعيفة ولا تسيئوه بأقوال النساء الخفيفة »

وقد لبّى الرجالُ هذه الدعوة بداهةً او اختياراً . فالنقدُ الاجتماعي الذي عالجهُ قاسم امين بلوذعيةٍ وحصافةٍ سبقتهُ التيمورية بهذه الدعوة الى الاصلاح . لان الكتاب الذي وضعهُ قاسم بالفرنساوية ردّاً على الدوق داركور صدر سنة ٩٤ ، وعقليتهُ لم تتفتق فيهِ عن تلك الثورة النبيلة الكامنة . ولم يصدر كتاب « تحرير المرأة » الذي بسط فيهِ نظرياته الجريئة إلاّ بعد اربعة او خمسة اعوام ، وعقّب عليهِ بكتاب « المرأة الجديدة » الذي صدر سنة ١٩٠٠

(ج) لا تصلح العائلات الاَّ بتربية البنات

يقول ابن اخي الشاعرة ، محمود بك تيمور ، ان التيمورية نشرت مقالات في جريدة « المؤيد ». وأرجح ان خير تلك المقالات أدرجتها زينب فواز في كتابها « الدر المنثور » وقالت انها اقتبستها عن جريدة « الآداب » الصادرة يوم السبت الموافق ٩ جمادي الثانية سنة ١٣٠٦ هجرية ، اي سنة ١٨٨٨ ميلادية وقبل ان يكتب قاسم أمين في هذا الموضوع باثنتي عشرة سنة تقريباً

أرجح ان هذه خير مقالاتها لأنَّ عائشة كانت وزينب فوَّاز على اتصال وائتلاف، وقد ترجمت زينب لعائشة في حياتها واستقت منها مصادر تلك الترجمة، بما فيها تراسلها ووردة اليازجي نظماً ونثراً . كما انها صدَّرت كتاب « الدرّ المنثور » بخطاب من عائشة كلّهُ ثناء وتقريظ على طريقة ذلك العصر . وحيث انها ادرجت هذا المقال دون سواه فأكبر الظنّ انها فعلت باشارة التيمورية ، او انها فضّلتهُ على غيره نسبة لما فيه

وإنهُ لأثر نفيس حقّاً ، لانهُ بكر في لمس موضوع خطير . وخير ما تنتهي اليهِ الآن مباحثنا ليس باصدق نظراً ، ولا هو باصوب حكماً ، مما جاءت بهِ عائشة منذ ٣٧ عاماً

عنوان هذا المقال هو « لا تصلح العائلات الاَّ بتربية البنات » . وكما انها في « مرآة التأمل في الامور » تجعل منشأ الشقاء في بحث الرجل عن الثروة ليسيء التصرُّف بها ويهدم بيتهُ بيدهِ ، في هذا المقال تلوم المرأة على مبالغتها في الزينة دون الانتباه الى واجباتها ، وترى في ذلك مبعث الخلل والفساد ، وتعجبُ « من مدنيَّة تشغف بتزيين فتياتها بحلي مستعار ، وتستعين على إظهار جمالهنّ بزخرف المعادن والاحجار ، وتخيَّل انها زادتهنّ بسطة في الحسن والدلال . والحال انها ألقت تلك الاحداث في اخدود الوبال ، لانهُ لم يعد عليهنَّ من تلك المستعارات الاَّ العجب والغرور المؤدي بهنَّ الى ساحات المباهاة والفجور . وذلك لكفّ بصيرتهنَّ عن الادراك وعدم علمهنّ بنتائج الاحوال وعواقب الامور »

قلَّ ما ناقشتُ آراء عائشة في هذا الدرس شعرها ونثرها ، وإنما قصرتُ على ابراز أوجه خواطرها . ولولا ذلك لاتّسع المجال للاسهاب في ما يشتق العائلات وبسعدها ولتوافرت المادة فيما يتعلّق بتربية المرأة وما ينطوي تحتها من الحقائق والفروض . ولئن علقتُ أحياناً على نظرية منها فلتعذُّر السكوت على ما يحتملهُ ذلك من إبهام وتأويل

وموضوع زينة المرأة قد يشغل كتاباً او كتباً لمن يريد ان يتناوله من وجوه المهمّة دون الاكتفاء بالارشاد ، أو بالتهكم ، أو بالنقد الجارح . لذلك التي هنا بكلمة فقط

اعتقدُ ان من طبيعة وجود المرأة أن تكون جميلة ، كما ان من طبيعة وجود النوع الانساني ان يكون ذكياً نشيطاً . وكما يصقلُ المرء ذكاءهُ بالمعرفة والتجربة والاطلاع كذلك تصقلُ المرأةُ جمالها بالزينة والاناقة والكياسة . الفتاةُ معدّة لتكون ربة منزل، وامّ عائلة ، وسيدة مجلس زائرة ومزورة ، لا لتنزوي في حياة الزهد والرهبانية . فيجب أن تُنشأ على ما هيئت لهُ من إبهاج المنازل وتزيين المجتمعات ، وبثّ اللطف والانس في كلّ نادٍ تحلُّ فيهِ . ولما كان عليها ابن ترضي برخامة صوتها ، وحلاوة ابتسامتها ، وظرف حديثها كذلك عليها ان تروق النظر بحسن هندامها . فالعيب إذن ليس في ميل المرأة (والرجل كذلك !) الى الزينة ، ولكن في المغالاة بارضاء ذلك الميل ، وعدم الخضوع لقواعد الذوق السليم في التصرُّف بمظاهره . والغلوّ عيبٌ في كلّ امر كما ان سقم الذوق نكبةٌ دائمة

وللتوفيق بين تنظيم الزينة والاقتصاد فيها يجب ان تتعوّدها الفتاة منذ الصغر . بعكس ما تجري عليهِ اكثر المدارس ان لم نقل كلها ، في تجريد البنات من كلّ حلية، وافهامهن انّ الزينة جائزة بعد الخروج من المدرسة . فينلن حريتهنّ من هذه الناحية متأخرات ، كمن يستأنف تربية نفسهِ على غير الوجه الذي ألفهُ سابقاً . ومن هنا عدم التوازن ، وعدم وضع الشيء في مكانهِ ، والاغراق في اسراف الوقت والدرهم ، والغلوُّ في تفسير اهمية الزينة ، والتظاهر الذي تحبهُ اكثر النساء من انهنّ لا يتجملّن على الاطلاق . والواقع ان اكثرهنّ تنصلاً اوفرهنّ تجملاً — الاّ اذا كنّ من اللاتي يأبى التجمّل ان يوافق « وطرازهن » وشكلهنّ الطبيعي

ولو شبّت جميع الفتيات على اعتبار الزينة المعقولة الفنيّة جزءاً من ترتيب هندامهنّ على ما يناسب شكلهنّ وقالبهنّ بحكم الذوق والزيّ الجاري، لما انفقن في سبيل ذلك وقتاً ولا كان ذلك لهنّ تكلّفاً وعملاً مستقلاً بل لاندمج في عاداتهنّ وصار طبيعياً . وإذن لما رأينا المرأة في كثير من الاسر الشرقية بأثواب رثة قذرة بين زوجها واولادها بلا لياقة ولا كرامة . حتى اذا خرجت للزيارة ارتدت افخر الاثواب وازدانت بأنفس الحلي فبدت في كل اولئك غريبة بطيئة الحركات ، مرتبكة السكنات ، وكلُّ جارحة فيها تنطق بانها « مطقّمة بزيّ الآحاد والاعياد » على نحو ما يقول الفرنسيون

لو شبّت المرأة على الزينة المعقولة لأدركت ان هذه الزينة لنفسها لا للناس، ولامتدت عنايتها تلك الى منزلها فلا تقصر ترتيبهُ على يوم الزيارة وتبقيهِ في الايام الاخرى على اسوأ ما يعهد من التشويش والارتباك . ولامتدت تلك الاناقة الى افكارها ، والى آرائها ، والى نظرتها في الحياة ، والى ميولها الاخلاقية . فالمزيَّة الواحدة تستطيع ان تكون ذات تأثير على نواحٍ شتى من الاعمال كما ان العيب الواحد قد يهدم حياةً باسرها. ومواعظ المرشدين لم تجد نفعاً على طول الاجيال ، لان حبَّ الجمال اعرق في الانسان واحيا من تطيُّرهم وإرعابهم . وليتهم يستبدلوهُ بالارشاد إلى الوسائل المرضية من الزينة الواجبة

طويلة حاشيتي هذه بعد كلام التيموريَّة ، ولكنها غير دخيلة ولا تافهة . فمن حقّ الجميل ان يطمع في المزيد ، ومن حق غير الجميل ان يقلّل من دمامته و يسترها ، ويحاول اظهارها بالمظهر غير المستنكر

ورغم إنكار الغلوّ في الزينة الفارغة ، فان التيمورية ترى ان اعنف العتب يقع على الرجل — و باحثة البادية ستقول هذا القول فيما بعد — لانهُ القويُّ وفي وسعهِ النهوض بالمرأة بها الى حيث تسع مداركها فتشاركهُ . فاذا بها تنادي

«فيا رجال اوطاننا ! لم تركتموهن سدًى ؟ » «وهن بين اناملكم اطوع من قلم ؟» «نعلام ترفعون اكف الحيرة عند الحاجة كالفال المعنّى ، وقد عزمتم بامرهن وازدريتم باشتراكهن معكم في الاعمال واستحسنتم انفرادكم في كل معنى ؟ فانظروا عائد اللوم على من يعود »

منذ خمس وثلاثين سنة طلبت عائشة اشتراك المرأة مع الرجل في الاعمال ، ولم هذا الاشتراك ؟ لانهُ طبيعيٌّ «من حكم باري النسمات وموجد المخلوقات » ولأنهُ الاساس الاصلي « لصيرورة مدار عمران هذا العالم على الزوجين . ولو امكن الانفراد خصّ علم الاسرار احدهما دون الآخر ، وهو الافضل ، ولم يفتقر الى ما هو دونهُ . فكان التأمل في هيولى هذا يكون موجباً على الهيئة الرجولية العناية بتعلم المرأة وتهذيبها لينالوا بذلك ارفع مجدٍ وأهنأ جدّ ، ولتعتاض الفتيات عن قلق الجهل براحة العرفان » . أي ليقمن بواجبات التدبير في منازلهن ومحيطهن ، ويأتين بالمطلوب من عطفٍ ووقايةٍ وحكمةٍ نحو نفوسهن وذويهن دون شعوذةٍ ولا شرود عن الصواب

انها تقول بلفتها بالمساواة بين الرجل والمرأة ، تقول بذلك لفظاً لا تلميحاً : « إذ لو

أمكن الانفراد للرجل لخصّهُ الله بالوجود دون المرأة . فهما ضروريان كلٌّ منهما للآخر ، موجودان معاً تحت شمس واحدة واحكام واحدة يأتي كلٌّ بقسطه من واجبات متعادلة»

لقد قالت هذا في الشرق ، ورأت ان يتساوى الرجل والمرأة وان يتشاركا في الاعمال ، وهي محجوبة رهن جدران الخدر . . ومتى ؟ في حين هذا كان يعدُّ بدعةً في اوربا . إذ لا يفوتني ان لفظة « ذكر » لم يتّفق على حذفها من قوانين انجلترا والاستعاضة عنها بلفظة « رجل » او « احد » ، الا منذ سنة ١٨٥٠ ، وكان ذلك عنوان تحرير المرأة عندهم وإدخالها في طائفة بني الانسان !

***

التربية تنطوي على فروض كثيرة وتحتمل إيضاحات وتأويلات شتّى . وعليها تحت قلم عائشة مزيد من الابهام والمرونة . اولاً انها يطلب في معناها بقولها « تأديب البنات وتهذيب العائلات » وجوب تنشئة الفتاة لتكون اهلاً للسهر على مصلحة الاسرة والقيام بالمطلوب في سبيل تقدمها وراحتها وهنائها . لانّ في حجرها تشبُّ الأجيال ومن كان مهيَّأً لاعداد العظماء والنبلاء والصلاح وجب ان يكون على عظمة ونبل وصلاح

والمساواة ؟ هي معنىً عارض في كلام عائشة ، رغم اهميته بالنسبة للوقت الذي اورد فيه . اما اليوم فقد شاعت هذه الكلمة وشاع معناها لدى من يفهمهُ ومن يدّعي انهُ يفهمهُ جميعاً . ولكنّ اكثرية الرجال ، حتى المتعلم والراقي منهم ، تكهربهم هذه الكلمة وتثير تخطهم وتهكمهم ، ولا يقرون ما يقرّونهُ منها إلاّ بقائمة من شروط الحصر والتقييد

وأنا أرى في إنكار المساواة على المرأة ما هو تكريم لها ، أيّاً كانت الصيغة واللهجة المعبّر بها عن ذلك الانكار . انهُ لدليلٌ على انّ الرجل يجهدهُ كفاح الحياة فلا يريدهُ للمرأة ، ويطمع في ادّخارها للراحة والهناء والرخاء والمؤاساة . بل هو دليل على محبتهِ التي تتلوّن بشتّى الالوان ، وعلى احترامهِ ولو مُسخ احياناً بشكل الاستخفاف . أذلك الانكار محض أنانية كما يزعمون ؟ وماذا لو كان ذلك ؟ ومتى كانت الحياة خاليةً من الانانية ؟ وما احبّ انانية أحبابنا الينا ! أما الانانية المقيتة من القريب والغريب على السواء فهي الانانية التي تنفخ على حسابنا ، ولا تجعل لنا في إحصائها مكاناً وقدراً . ومن هنا نشأ كلّ ثورة وكلّ فتنة وكلّ ظلم

انّ المرأة التي تنال عوضاً عن تأدية واجباتها عطفاً وحبّاً ، لا تثور ولا تشكو

حتى ولو خسرتها المسؤولية . وانما هي المرأة المظلومة من ناحية العواطف التي تصيح وتلح. يطلبون منها ألف الف واجب ، و يقيدونها بألف الف قيد ، ويرهقونها بألف الف وقر ، ومقابل ذلك ماذا ؟ مقابل ذلك لا رعاية احياناً ، ولا عطف ، ولا محبة ، حتى ولا مجاملة . إذن لماذا تحتمل ، وفي سبيل أي غاية تحيا ؟ لقد سن لها هذا المجتمع ، دون الرجل ، قانوناً حتى للعواطف . وركز لها ضمن حدود العائلة مسرّات الحنان وهناء القلب . ولم تقدّر تلك القوانين ان ما فرضته قد لا يتحقق ، في حين ترغم المرأة على الواجبات الباهظة وتعذبها لحاجة العيش ووخز الحاجة . وليست كل اسرة تقوم بتلك الحاجة المحسوسة نحو افرادها . ولا كل رجل زوجاً كان ، او أباً ، او اخاً ، ليعلم ويدرك ان الرجولة لا تقوم بترأس العائلة وبالامر والنهي ، بل بتأدية واجبات يسهلها له المجتمع ويجعلها على المرأة اعسر ما تكون

قيود واستدراكات وحدود في كل جهة من حياة المرأة . وعلى هذه الضعيفة ان تذعن لها جميعاً وان ترى فيها الفضل والبرّ والكمال، وان تأتي بما لا يحجم ان يهمله الرجل شرط ان تظل ضمن حدود الفضل والبرّ والكمال . وللرجل كل الحرية في الحلال والحرام في الممنوع والجائز ! أيمكن ان يسكت على هذا الجور قلبٌ يحس وينبض ؟ إنه ليتأكله الجوى ويكظم عذابه الى حين ، ولكن لا بد ان يتفجر عن الاسى يوماً . لاسيما إذا رأى ان لامنفعة له من جهاده، وان خيوط حياته تبلى عبثاً ليجني ثمرة تعبه من ليس لذلك أهلاً

واهاً ، أيها الرجال الفضلاء ، انتم الذين تسعدون النساء العائشات تحت رعايتكم ، لو علمتم كلّ ما يكنه النداء الى المساواة من نصال مغمدة في سويداء القلوب ، لو علمتم ذلك لعملتم ليس على نقض معاني المساواة كما تفعلون أحياناً ، بل على تعديل القوانين الجائرة وجعلها صالحة لجميع افراد المجتمع

لستُ لأبرّر المرأة . إن المرأة المهدّمة في المنزل والبيئة لا كبر نكبات الله ، والمرأة الشريرة شرٌّ من أخبث الشياطين . ولكن من ذا يحمي الابرياء منها ؟ من ذا يحمي المرأة النشيطة الصالحة النائمة في مكنتها من خمول الخامل ، وبطش البطاش ، وغرور المغرور ؟

ليس هناك غير الجواب الذي لا تحبون سماعه ، ولكنه لا حل عن غير طريقه : فاما ما يزيد عن المساواة من الرجل المحب للمرأة الحبيبة ، واما المساواة عن طريق القانون من الرجل المنصف للمرأة الغريبة «مي»